

تفسير سورة الحجر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾﴾ .

﴿١﴾ يقول تعالى معظماً لكتابه مادحاً له: ﴿تلك آيات الكتاب﴾؛ أي: الآيات الدالة على أحسن المعاني وأفضل المطالب، ﴿وقرآن مبين﴾: للحقائق بأحسن لفظ وأوضحه وأدله على المقصود.

﴿٢﴾ وهذا مما يوجب على الخلق الانقياد إليه والتسليم لحكمه وتلقيه بالقبول والفرح والسرور، فأما من قابل هذه النعمة العظيمة بردها والكفر بها؛ فإنه من المكذبين الضالين، الذين سيأتي عليهم وقت يتمنون أنهم مسلمون؛ أي: منقادون لأحكامه، وذلك حين ينكشف الغطاء وتظهر أوائل الآخرة ومقدمات الموت؛ فإنهم في أحوال الآخرة كلها يتمنون أنهم مسلمون، وقد فات وقت الإمكان، ولكنهم في هذه الدنيا مغترون.

﴿٣﴾ ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾: بلذاتهم، ﴿ويلهمهم الأمل﴾؛ أي: يؤملون البقاء في الدنيا فيلهيهم عن الآخرة، ﴿فسوف يعلمون﴾: أن ما هم عليه باطل، وأن أعمالهم ذهبت خسراناً عليهم، ولا يغتروا بإمهال الله تعالى؛ فإن هذه سنته في الأمم.

﴿٤﴾ ﴿وما أهلكنا من قرية﴾: كانت مستحقة للعذاب، ﴿إلا ولها كتاب معلوم﴾: مقدر لإهلاكها.

﴿٥﴾ ﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾: وإلا؛ فالذنوب لا بد من وقوع أثرها وإن تأخر.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُزِّلَ الْمَلَكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُم لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ .

﴿٦﴾ أي: وقال المكذبون لمحمد ﷺ استهزاءً وسخريةً: ﴿يا أيها الذي نُزِّلَ عليه الذكر﴾: على زعمك، ﴿إنك لمجنون﴾: إذ تظنُّ أنا سنتبعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا لمجرد قولك.

﴿٧ - ٨﴾ ﴿لو ما تأتينا بالملائكة﴾: يشهدون لك بصحة ما جئت به، ﴿إن كنت من الصادقين﴾: فلما لم تأت بالملائكة؛ فلست بصادق. وهذا من أعظم الظلم والجهل: أما الظلم؛ فظاهر؛ فإنَّ هذا تجرؤ على الله وتعنت بتعيين الآيات التي لم يختزها، وحصل المقصود والبرهان بدونها من الآيات الكثيرة الدالة على صحة ما جاء به. وأما الجهل؛ فإنَّهم جهلوا مصلحتهم من مضرَّتهم؛ فليس في إنزال الملائكة خيرٌ لهم، بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذي لا إمهال على من لم يتَّبعه وينقذ له. ﴿وما كانوا إذا﴾؛ أي: حين تنزل الملائكة إن لم يؤمنوا ولن يؤمنوا، ﴿مُنظِّرين﴾؛ أي: بممهِّلين، فصار طلبهم لإنزال الملائكة تعجلاً لأنفسهم بالهلاك والدمار؛ فإن الإيمان ليس في أيديهم، وإنما هو بيد الله، ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحسبنا عليهم كلَّ شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، ولكن أكثرهم يجهلون﴾.

﴿٩﴾ ويكفيهم من الآيات إن كانوا صادقين هذا القرآن العظيم، ولهذا قال هنا: ﴿إننا نحن نزلنا الذكر﴾؛ أي: القرآن الذي فيه ذكرى لكل شيء من المسائل والدلائل الواضحة، وفيه يتذكر من أراد التذكر. ﴿وإننا له لحافظون﴾؛ أي: في حال إنزاله وبعد إنزاله؛ ففي حال إنزاله حافظون له من استراق كلِّ شيطان رجيم، وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله واستودعه في قلوب أمته وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها والزيادة والنقص ومعانيه من التبديل؛ فلا يحرف محرّف معنى من معانيه إلا وقبض الله له من بيّن الحق المبين، وهذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين، ومن حفظه أن الله يحفظ أهله من أعدائهم، ولا يسلب عليهم عدواً يحتاجهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٢﴾ كَذَلِكَ نَسَلُّكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٠﴾ يقول تعالى لنبيه إذ كذبه المشركون: لم يزل هذا دأب الأمم الخالية والقرون الماضية، فقد أرسلنا ﴿قبلك في شيع الأولين﴾؛ أي: فرقهم وجماعتهم رسلاً.

﴿١١﴾ ﴿وما يأتيهم من رسول﴾: يدعوهم إلى الحق والهدى، ﴿إلا كانوا به يستهزئون﴾.

﴿١٢ - ١٣﴾ ﴿كذلك نسلكه﴾؛ أي: ندخل التكذيب ﴿في قلوب المجرمين﴾؛ أي: الذين وصفهم الظلم والبُهت، عاقبناهم لما تشابهت قلوبهم بالكفر والتكذيب تشابهت معاملتهم لأنبيائهم ورسولهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان، ولهذا قال: ﴿لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين﴾؛ أي: عادة الله فيهم بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله.

﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون﴾ ﴿١٤﴾ ﴿لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾ ﴿١٥﴾.

﴿١٤ - ١٥﴾ أي: ولو جاءتهم كل آية عظيمة؛ لم يؤمنوا وكابروها، ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء﴾: فصاروا يعرجون فيه ويشاهدونه عياناً بأنفسهم؛ لقالوا من ظلمهم وعنادهم منكبين لهذه الآية: ﴿إنما سكرت أبصارنا﴾؛ أي: أصابها سكر وغشاوة حتى رأينا ما لم نر. ﴿بل نحن قوم مسحورون﴾؛ أي: ليس هذا بحقيقة، بل هذا سحر. وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار؛ فإنهم لا مطمع فيهم ولا رجاء.

ثم ذكر الآيات الدالات على ما جاءت به الرسل من الحق فقال:

﴿ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للنظرين﴾ ﴿١٦﴾ ﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ ﴿١٧﴾ ﴿إلا من استرق السمع فأنبغهم شهاب ثمين﴾ ﴿١٨﴾ ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رويساً وأنبتنا فيها من كل شئ موزون﴾ ﴿١٩﴾ ﴿وجعلنا لكو فيها معيش ومن أنشئ لهم برزقين﴾ ﴿٢٥﴾.

﴿١٦﴾ يقول تعالى مبيناً كمال اقتداره ورحمته بخلقه: ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجا﴾؛ أي: نجوماً كالأبراج والأعلام العظام يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ﴿وزيناها للنظرين﴾: فإنه لولا النجوم؛ لما كان للسماء هذا المنظر البهي والهيئة العجيبة، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها والنظر في معانيها والاستدلال بها على بارئها.

﴿١٧﴾ ﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾: إذا استرق السمع؛ أتبعته الشهب الثواقب، فبقيت السماء ظاهرها مجملٌ بالنجوم النيرات، وباطنها محروسٌ ممنوعٌ من الآفات.

﴿١٨﴾ ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾؛ أي: [إِلَّا] في بعض الأوقات قد يسترق بعض الشياطين السمع بخفية واختلاس. ﴿فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مَبِينٌ﴾؛ أي: بين منير يقتله أو يخيله؛ فربما أدركه الشهاب قبل أن يوصلها الشيطان إلى وليه فينقطع خبر السماء عن الأرض، وربما ألقاها إلى وليه قبل أن يدركه الشهاب، فيضمها، ويكذب معها مائة كذبة، ويستدل بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

﴿١٩﴾ ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا﴾؛ أي: وسعناها سعة يتمكن الآدميون والحيوانات كلها من الامتداد بأرجائها والتناول من أرزاقها والسكون في نواحيها. ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِوَاسِيًّا﴾؛ أي: جبلاً عظيماً تحفظ الأرض بإذن الله أن تميّد وتشتتها أن تزول. ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾؛ أي: نافع متقوم يضطر إليه العباد والبلاد ما بين نخيل وأعناب وأصناف الأشجار وأنواع النبات والمعادن.

﴿٢٠﴾ ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾: من الحرث ومن الماشية ومن أنواع المكاسب والحرث، ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾؛ أي: أنعمنا عليكم بعبيد وإماء وأنعام لنفعمكم ومصالحكم، وليس عليكم رزقها، بل حوزكم الله إياها، وتكفل بأرزاقها.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ ﴿٢١﴾.

﴿٢١﴾ أي: جميع الأرزاق وأصناف الأقدار لا يملكها أحدٌ إلا الله؛ فخزائنها بيده، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بحسب حكمته ورحمته الواسعة. ﴿وَمَا نُنزِّلُهُ﴾؛ أي: المقدر من كل شيء من مطر وغيره، ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾: فلا يزيد على ما قدره الله، ولا ينقص منه.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَقَيْنَاكُمْ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ ﴿٢٢﴾.

﴿٢٢﴾ أي: وسخرنا الرياح رباح الرحمة تُلقيح السحاب كما يُلقيح الذكر الأنثى، فينشأ عن ذلك الماء بإذن الله، فيسقيه الله العباد ومواسيهم وأرضهم، ويُقي في الأرض مدخراً لحاجاتهم وضروراتهم ما هو مقتضى قدرته ورحمته. ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾؛ أي: لا قدرة لكم على خزنه وأدخاره، ولكن الله يخزنه لكم ويسلكه ينابيع في الأرض رحمة بكم وإحساناً إليكم.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِلِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَعْرِبِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾.

﴿٢٣ - ٢٥﴾ أي: هو وحده لا شريك له الذي يحيي الخلق من العدم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ويميتهم لأجالهم التي قدرها، ﴿ونحن الوارثون﴾؛ كقوله: ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يُرجعون﴾: وليس ذلك بعزيز ولا ممتنع على الله؛ فإنه تعالى يعلم المستقدمين من الخلق والمستأخرين منهم، ويعلم ما تنقُصُ الأرض منهم وما تفرقُ من أجزائهم، وهو الذي قدرته لا يعجزها معجز، فيعيد عباده خلقاً جديداً، ويحشرهم إليه. ﴿إنه حكيم﴾: يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، ويجازي كلَّ عامل بعمله: إن خيراً؛ فخير، وإن شراً؛ فشر.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْبَلَاءَ خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَأَخْرِجْهَا مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِنْ يَوَّرَ الْيَدَيْنِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ يَوَّرَ الْوَقْتَ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

يذكر تعالى نعمته وإحسانه على أبينا آدم عليه السلام، وما جرى من عدوه إبليس، وفي ضمن ذلك التحذير لنا من شره وفتنته، فقال تعالى:

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾؛ أي: آدم عليه السلام ﴿مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾؛ أي: من طين قد ييس بعدما حُمِرَ حتى صار له صَلْصَلَةٌ وصوت كصوت الفخار. والحما المسنون: الطين المتغير لونه وريحه من طول مكته.

﴿٢٧﴾ ﴿وَالْبَلَاءَ﴾: وهو أبو الجن؛ أي: إبليس، ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ﴾: خلق آدم، ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾؛ أي: من النار الشديدة الحرارة.

﴿٢٨ - ٢٩﴾ فلما أراد الله خلق آدم؛ قال للملائكة: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾: جسداً تاماً، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.

﴿٣٠ - ٣١﴾ فامثلوا أمر ربهم، ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾: تأكيد بعد تأكيد؛ ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد، وذلك تعظيماً لأمر الله وإكراماً لآدم حيث عَلِمَ ما لم يعلموا. ﴿إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾: وهذه أول عداوته لآدم وذريته.

﴿٣٢ - ٣٣﴾ قال: ﴿يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين. قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون﴾: فاستكبر على أمر الله، وأبى العداوة لآدم وذريته، وأعجب بعنصره، وقال: أنا خير من آدم.

﴿٣٤ - ٣٥﴾ قال: ﴿الله معاقباً له على كفره واستكباره﴾: ﴿فاخرج منها فإنك رجيم﴾؛ أي: مطرود ومبعد من كل خير، ﴿وإن عليك اللعنة﴾؛ أي: الذم والعيب والبعد عن رحمة الله ﴿إلى يوم الدين﴾. فيها وما أشبهها دليل على أنه سيستمر على كفره وبعده من الخير.

﴿٣٦ - ٣٨﴾ قال رب فأنظرنى؛ أي: أمهلني ﴿إلى يوم يُبعثون﴾. قال فإنك من المنظرين. إلى يوم الوقت المعلوم: وليس إجابة الله لدعائه كرامة في حقه، وإنما ذلك امتحاناً وابتلاءً من الله له وللعباد؛ ليتبين الصادق الذي يطيع مولاه دون عدوه ممن ليس كذلك، ولذلك حذرنا منه غاية التحذير، وشرح لنا ما يريده مثلاً.

﴿٣٩﴾ قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض؛ أي: أزين لهم الدنيا، وأدعوهم إلى إثارها على الأخرى، حتى يكونوا منقادين لكل معصية، ﴿ولأغوينهم أجمعين﴾؛ أي: أصدهم كلهم عن الصراط المستقيم، ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾؛ أي: الذين أخلصتهم، واجتبتهم لإخلاصهم وإيمانهم وتوكلهم.

﴿٤٠﴾ قال الله: ﴿هذا صراط علي مستقيم﴾؛ أي: معتدل موصل إلي وإلى دار كرامتي.

﴿٤١﴾ ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾: تميلهم به إلى ما تشاء من أنواع الضلالات بسبب عبوديتهم لربهم وانقيادهم لأوامره، أعانهم الله وعصمهم من الشيطان.

﴿٤٢﴾ ﴿إلا من أتبعك﴾: فرضي بولايتك وطاعتك بدلاً من طاعة الرحمن، ﴿من الغاوين﴾: والغاوي ضد الراشد؛ فهو الذي عرف الحق وتركه، والضال الذي تركه من غير علم منه به.

﴿٤٣﴾ ﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾؛ أي: إبليس وجنوده.

﴿٤٤﴾ ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: كل باب أسفل من الآخر. ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ﴾؛ أي: من أتباع إبليس ﴿جِزَاءً مَقْسُومًا﴾: بحسب أعمالهم؛ قال تعالى: ﴿فَكُتِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾. ولما ذكر تعالى ما أعد لأعدائه أتباع إبليس من النكال والعذاب الشديد؛ ذكر ما أعد لأولياته من الفضل العظيم والنعيم المقيم، فقال:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَأَمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَجْوَىٰ عَبَادٍ أَتَىٰ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٥﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾: الذين اتقوا طاعة الشيطان وما يدعوهم إليه من جميع الذنوب والعصيان، ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾: قد احتوت على جميع الأشجار، وأينعت فيها جميع الثمار اللذيذة في جميع الأوقات.

﴿٤٦﴾ ويقال لهم حال دخولها: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَأَمِينَ﴾: من الموت والنوم والنَّصَبِ واللُّغُوبِ وانقطاع شيء من النعيم الذي هم فيه أو نقصانه ومن المرض والحزن والهَمِّ وسائر المكدرات.

﴿٤٧﴾ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾: فتبقى قلوبهم سالمةً من كل غلٍّ^(١) وحسدٍ متصافية متحابَّة، ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾: دل ذلك على تزاورهم واجتماعهم وحسن أدبهم فيما بينهم في كون كل منهم مقابلاً للآخر لا مستدبراً له، متكئين على تلك السُرر المزيَّنة بالفرش واللؤلؤ وأنواع الجواهر.

﴿٤٨﴾ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾: لا ظاهرٌ ولا باطنٌ، وذلك لأن الله ينشئهم نشأةً وحياةً كاملةً لا تقبل شيئاً من الآفات. ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾: على سائر الأوقات.

﴿٤٩﴾ [ولما ذكر ما يوجب الرغبة والرغبة من مفعولات الله من الجنة والنار؛ ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه تعالى] فقال: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي﴾؛ أي: أخبرهم خبراً جازماً مؤيداً بالأدلة، ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته؛ سعوا بالأسباب^(٢) الموصلة لهم إلى رحمته، وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها؛ لينالوا مغفرتة.

في (ب): «في الأسباب».

(١) في (ب): «دغل».

﴿٥٠﴾ ومع هذا؛ فلا ينبغي أن يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال؛ فنبئهم ﴿أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾؛ أي: لا عذاب في الحقيقة إلا عذابُ الله الذي لا يقادِرُ قَدْرَهُ ولا يُبَلِّغُ كُنْهَهُ، نعوذ به من عذابه؛ فإنهم إذا عرفوا أن^(١) لا يعذب عذابه أحدٌ ولا يوثق وثاقه أحدٌ؛ حذروا وأبعدوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب.

فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائماً بين الخوف والرجاء والرغبة والرهبة؛ فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه؛ أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه؛ أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها.

﴿وَنَبِّئْتَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿٥٣﴾ قَالَ أِبَشَرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا تَبْشُرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَاطِقِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٥١﴾ يقول تعالى لنبئهم عن ضيف إبراهيم عليه السلام: ﴿وَنَبِّئْتَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ أي: عن تلك القصة العجيبة؛ فإن في قصصهم أبناء الرسل وما جرى لهم ما يوجب لهم العبرة والافتداء بهم، خصوصاً إبراهيم الخليل، الذي أمرنا الله أن نتبع ملته، وضيفه هم الملائكة الكرام، أكرمه الله بأن جعلهم أضيافه.

﴿٥٢﴾ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾؛ أي: سلموا عليه فرد عليهم، ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ﴾؛ أي: خائفون؛ لأنه لما دخلوا عليه، وحسبهم ضيوفاً؛ ذهب مسرعاً إلى بيته، فأحضر لهم ضيافتهم عجلًا حينئذ، فقدمه إليهم، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه؛ خاف منهم أن يكونوا لصوصاً أو نحوهم فقالوا له:

﴿٥٣﴾ ﴿لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ﴾: وهو إسحاق عليه الصلاة والسلام. تضمنت هذه الإشارة بأنه ذكر لا أنثى. ﴿عليك﴾؛ أي: كثير العلم. وفي الآية الأخرى: ﴿وَبَشَرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿٥٤﴾ ﴿قَالَ﴾ لهم متعجباً من هذه البشارة: ﴿أَبَشَرْتُمُونِي﴾: بالولد ﴿على أن مسنني الكبر﴾: وصار نوع إياس منه. ﴿فبم تبشرون﴾؛ أي: على أي وجه تبشرون وقد عدت الأسباب؟!

(١) في (ب): «أنه».

﴿٥٥﴾ ﴿قَالُوا بِشْرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾: الذي لا شك فيه؛ لأن الله على كل شيء قدير، وأنتم بالخصوص يا أهل هذا البيت، رحمة الله وبركاته عليكم؛ فلا يُستغرب فضل الله وإحسانه إليكم. ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾: الذين يستبعدون وجود الخير، بل لا تزال راجياً لفضل الله وإحسانه وبره وامتنانه.

﴿٥٦﴾ فأجابهم إبراهيم بقوله: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾: الذين لا علم لهم بربهم وكمال اقتداره، وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم؛ فلا سبيل إلى القنوط إليه؛ لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق لرحمة الله شيئاً كثيراً.

ثم لما بشروه بهذه البشارة؛ عَرَفَ أَنَّهُمْ مَرْسَلُونَ لِأَمْرِ مَهْمٌ.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْغَادِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَذِّبُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَمُصَدِّقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ يَقطع مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْمِزُكَ أَحَدٌ وَآمَنُوا حَيْثُ تَوَمَّرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْحِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَكْفُرُوا ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكْ عَنِ الْمَعْلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتٌ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَمَعْرَكٍ لَهُنَّ لَبِي سَكْرِيهِنَّ يَمْعَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذْتَهُنَّ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَابِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِنَّ جِبَابًا مِّنَ سَجِيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّا لَنَسِيبِلِ مُّقْبِرٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

﴿٥٧﴾ أي: ﴿قال﴾ الخليل عليه السلام للملائكة: ﴿فما خطبكم أيها المرسلون؛ أي: ما شأنكم؟ ولأي شيء أرسلتم؟!﴾

﴿٥٨﴾ ﴿قالوا إننا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾؛ أي: كثر فسادهم وعظم شرهم لنعذبهم ونعاقبهم.

﴿٥٩ - ٦٠﴾ ﴿إلا آل لوط﴾؛ أي: إلا لوطاً وأهله، ﴿إلا أمراته قدزنا أنها لمن الغابرين﴾؛ أي: الباقيين بالعذاب، وأما لوط؛ فسُنْخِرْجَتْه وأهله ونجَّيهم منها. فجعل إبراهيم يجادل الرسل في إهلاكهم ويراجعهم، فقيل له: ﴿يا إبراهيم أعرض

- عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنتهم آتيتهم عذاب غير مردود. فذهبوا منه.
- ﴿٦١ - ٦٢﴾ ﴿فلما جاء آل لوط المرسلون قال﴾ لهم لوط: ﴿إنكم قوم منكرون﴾؛ أي: لا أعرفكم، ولا أدري من أنتم.
- ﴿٦٣﴾ ﴿قالوا بل جنناك بما كانوا فيه يمترون﴾؛ أي: جنناك بعذابهم الذي كانوا يشكون فيه ويكذبونك حين تعدهم به.
- ﴿٦٤﴾ ﴿وأنتناك بالحق﴾: الذي ليس بالهزل. ﴿وإننا لصادقون﴾: فيما قلنا لك.
- ﴿٦٥﴾ ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل﴾؛ أي: في أثنائه حين تنام العيون ولا يدري أحد عن مسراك. ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾؛ أي: بل بادروا وأسرعوا، وامنضوا حيث تؤمرون﴾: كأن معهم دليلاً يدلهم على أين يتوجهون.
- ﴿٦٦﴾ ﴿وقضينا إليه ذلك﴾؛ أي: أخبرناه خبراً لا مثنوية فيه، ﴿أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾؛ أي: سيصبحهم العذاب الذي يجتاحهم، ويستأصلهم.
- ﴿٦٧ - ٦٩﴾ ﴿وجاء أهل المدينة﴾؛ أي: المدينة التي فيها لوط، ﴿يستبشرون﴾؛ أي: يبشرون بعضهم بعضاً بأضياف لوط وصباحة وجوههم واقتدارهم عليهم، وذلك لقصدهم فعل الفاحشة فيهم، فجاؤوا حتى وصلوا إلى بيت لوط، فجعلوا يعالجون لوطاً على أضيافه، ولوط يستعيد منهم ويقول: ﴿إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون. واتقوا الله ولا تخزون﴾؛ أي: راقبوا الله أول ذلك، وإن كان ليس فيكم خوف من الله؛ فلا تفضحوني في أضيافي، وتستهكوا منهم الأمر الشنيع.
- ﴿٧٠﴾ ﴿قالوا﴾ له جواباً عن قوله: ﴿ولا تخزون﴾ فقط: ﴿أولم ننهك عن العالمين﴾: أن تضيقهم، فنحن قد أنذرناك، ومن أنذر؛ فقد أعذر.
- ﴿٧١ - ٧٢﴾ ﴿قال﴾ لهم لوط من شدة الأمر الذي أصابه: ﴿هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين﴾: فلم يبالوا بقوله، ولهذا قال الله لرسوله محمد ﷺ: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾: وهذه السكره هي سكرة محبة الفاحشة التي لا يُبالون معها بعذل ولا لوم.
- ﴿٧٣﴾ ﴿فلما بينت له الرسل حالهم؛ زال عن لوط ما كان يجده من الضيق والكرب، فامثل أمر ربه، وسرى بأهله ليلاً، فنجا. وأما أهل القرية؛ فأخذتهم الصيحة مشرقين﴾؛ أي: وقت شروق الشمس؛ حين كانت العقوبة عليهم أشد.
- ﴿٧٤﴾ ﴿فجعلنا عاليها سافلها﴾؛ أي: قلبنا عليهم مدينتهم، ﴿وأمطرنا عليهم

حجارة من سجيل: تتبع فيها من شد من البلد منهم.

﴿٧٥﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾؛ أي: المتأملين المتفكرين الذين لهم فكرٌ ورويةٌ وفراصةٌ يفهمون بها ما أريد بذلك من أن من تجزأ على معاصي الله، خصوصاً هذه الفاحشة العظيمة، وأن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات؛ كما تجرؤوا على أشنع السيئات.

﴿٧٦﴾ ﴿وَإِنَّهَا﴾؛ أي: مدينة قوم لوط ﴿لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ﴾: للسالكين، يعرفه كلُّ من تردّد في تلك الديار.

﴿٧٧﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: وفي هذه القصة من العبر: عنايته تعالى بخليله إبراهيم؛ فإن لوطاً عليه السلام من أتباعه وممن آمن به، فكأنه تلميذ له؛ فحين أراد الله إهلاك قوم لوط حين استحققوا ذلك؛ أمر رسله أن يمرؤوا على إبراهيم عليه السلام كي يبشروه بالولد ويخبروه بما بعثوا له، حتى إنّه جادلهم عليه السلام في إهلاكهم، حتى أقنعوه، فطابت نفسه، وكذلك لوط عليه السلام، لما كانوا أهل وطنه؛ فربما أخذته الرقة عليهم والرافة بهم؛ قدر الله من الأسباب ما به يشتد غيظه وحنقه عليهم، حتى استبطأ إهلاكهم لما قيل له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أن يهلك قرية ازداد شرهم وطغيانهم؛ فإذا انتهى؛ أوقع بهم من العقوبات ما يستحقونه.

﴿وَإِن كَانَ آخِزًّا لَّآيَاتِكُمْ لَطَّالِينَ ﴿٧٨﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُم وَإِنَّهُمْ لِيَامِرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿٧٨﴾ وهؤلاء قوم شعيب، نعتهم الله وأضافهم إلى الأيكة، وهو البستان كثير الأشجار؛ ليذكر نعمته عليهم، وأنهم ما قاموا بها، بل جاءهم نبيهم شعيب، فدعاهم إلى التوحيد، وترك ظلم الناس في المكايل والموازين، وعالجهم على ذلك أشد المعالجة، فاستمروا على ظلمهم في حق الخالق وفي حق الخلق، ولهذا وصفهم هنا بالظلم.

﴿٧٩﴾ ﴿فَانقَمْنَا مِنْهُم﴾: فأخذهم عذاب يوم الظلة؛ إنه كان عذاب يوم عظيم. ﴿وَإِنَّهُمَا﴾؛ أي: ديار قوم لوط وأصحاب الأيكة، ﴿لِيَامِرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: لبطريق واضح يمر بهم المسافرون كل وقت، فيبين من آثارهم ما هو مشاهد بالأبصار، فيعتبر بذلك أولو الأبواب.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ آلِجَبْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَأَيَّدْنَاهُمْ بِآيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يُنَجِّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُضْجِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿٨٠﴾ يخبر تعالى عن أهل الحجر، وهم قوم صالح، الذين يسكنون الحجر المعروف في أرض الحجاز: أنهم كذبوا المرسلين؛ أي: كذبوا صالحاً، ومن كذب رسولاً؛ فقد كذب سائر الرسل لاتفاق دعوتهم، وليس تكذيب بعضهم لشخصه، بل لما جاء به من الحق، الذي اشترك جميع الرسل بالإتيان به.

﴿٨١﴾ ﴿وَأَيَّدْنَاهُمْ آيَاتِنَا﴾: الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق التي من جملتها تلك الناقة التي هي من آيات الله العظيمة. ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾: كبراً وتجبُّراً على الله.

﴿٨٢﴾ ﴿وَكَانُوا﴾: من كثرة إناعم الله عليهم، ﴿يُنَجِّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾: من المخاوف، مطمئنين في ديارهم؛ فلو شكروا النعمة وصدقوا نبيهم صالحاً عليه السلام؛ لأدر الله عليهم الأرزاق، ولأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل، ولكنهم لما كذبوا وعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا: ﴿يَا صَالِحُ آيَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿٨٣﴾ ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُضْجِينَ﴾: فقطعت قلوبهم في أجوافهم وأصبحوا في دارهم جائمين هلكى، مع ما يتبع ذلك من الخزي واللعنة المستمرة.

﴿٨٤﴾ ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: لأن أمر الله إذا جاء لا يرده كثرة جنود ولا قوة أنصار ولا غزارة أموال.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهُ فَاصِّحٌ الصَّفْحَ الْجَمِيلِ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

﴿٨٥﴾ أي: ما خلقناهما عبثاً باطلاً كما يظن ذلك أعداء الله، بل ما خلقناهما إلا بالحق؛ الذي منه أن يكونا بما فيهما دالتين على كمال خالقهما واقتداره وسعة رحمته وحكمته وعلمه المحيط، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له. ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهُ﴾: لا ريب فيها؛ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس. ﴿فَاصِّحُ الصَّفْحِ الْجَمِيلِ﴾: وهو الصفح الذي لا أذية فيه، بل يقابل

إساءة المسيء بالإحسان وذنبه بالغفران؛ لتنال من ربك جزيل الأجر والثواب؛ فإن كل ما هو آتٍ فهو قريب.

وقد ظهر لي معنى أحسن مما ذكرت هنا، وهو أن الأمور به هو الصفح الجميل؛ أي: الحسن الذي قد سلّم من الحقد والأذية القولية والفعليّة، دون الصفح الذي ليس بجميل، وهو الصفح في غير محلّه؛ فلا يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة؛ كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة، وهذا هو المعنى.

﴿٨٦﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾: لكل مخلوق، ﴿الْعَلِيمُ﴾: بكل شيء؛ فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه، وجرى عليه خلقه، وذلك سائر الموجودات.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلِنَّهِنَّ أجمعين ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ (١).

﴿٨٧﴾ يقول تعالى ممتثلاً على رسوله: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾: وهنّ على الصحيح السور السبع الطوال: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال مع التوبة. أو أنها فاتحة الكتاب؛ لأنها سبع آيات. فيكون عطف ﴿القرآن العظيم﴾ على ذلك من باب عطف العام على الخاص؛ لكثرة ما في المثاني من التوحيد وعلوم الغيب والأحكام الجليلة وتنشيتها فيها. وعلى القول بأن الفاتحة هي السبع المثاني معناها أنها سبع آيات تنشئ في كل ركعة.

﴿٨٨﴾ وإذا كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثاني؛ كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون وأعظم ما فرح به المؤمنون، ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾، ولذلك قال بعده: ﴿لا تمدنن﴾

(١) الآيات ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.

عينيك إلى ما مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴿٨٩﴾؛ أي: لا تعجب إعجاباً يَحْمِلُكَ عَلَى إِشْغَالِ فِكْرِكَ بِشَهْوَاتِ الدُّنْيَا الَّتِي تَمَتَّعَ بِهَا الْمَتْرَفُونَ وَاعْتَرَّتْ بِهَا الْجَاهِلُونَ، وَاسْتَعْنَى بِمَا آتَاكَ اللَّهُ مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾: فَإِنَّهُمْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ يُرْجَى، وَلَا نَفْعَ يُرْتَقَبُ؛ فَلِكِ فِي الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُمْ أَحْسَنُ الْبَدْلِ وَأَفْضَلُ الْعَوْضِ. ﴿وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ وَحَسِّنْ لَهُمْ خُلُقَكَ مَحَبَّةً وَإِكْرَامًا وَتَوْدَادًا.

﴿٨٩﴾ ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾؛ أي: قُمْ بِمَا عَلَيْكَ مِنَ النَّذَارَةِ وَأَدِّءِ الرِّسَالَةَ وَالتَّبْلِيغَ لِلْقَرِيبِ وَالبَعِيدِ وَالعَدُوِّ وَالصَّدِيقِ؛ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ؛ فَلَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ.

﴿٩٠﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾؛ أي: كَمَا أَنْزَلْنَا الْعُقُوبَةَ عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ عَلَى بَطْلَانٍ مَا جِئْتَ بِهِ، السَّاعِينَ لَصُدِّ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ.

﴿٩١﴾ ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾؛ أي: أَصْنَافًا وَأَعْضَاءً وَأَجْزَاءً يَصْرَفُونَهُ بِحَسَبِ مَا يَهُوونَهُ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: سِحْرٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: كِهَانَةٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: مَفْتَرَى... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَقْوَالِ الْكُفْرَةِ الْمَكْذُوبِينَ بِهِ، الَّذِينَ جَعَلُوا قَدْحَهُمْ فِيهِ؛ لِيَصُدُّوا النَّاسَ عَنِ الْهُدَى.

﴿٩٢ - ٩٣﴾ ﴿فَوَرَبُّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: جَمِيعَ مَنْ قَدَحَ فِيهِ وَعَابَهُ وَحَرَّفَهُ وَبَدَلَهُ، ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: وَفِي هَذَا أَعْظَمُ تَرْهِيْبٍ وَزَجْرٍ لَهُمْ عَنِ الْإِقَامَةِ عَلَى مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(١).

﴿٩٤﴾ ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَنْ لَا يِيَالِي بِهِمْ وَلَا بغيرِهِمْ، وَأَنْ يَصُدَّعَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ وَيَعْلَنَ بِذَلِكَ لِكُلِّ أَحَدٍ وَلَا يَعُوْقُهُ عَنْ أَمْرِهِ عَائِقٌ وَلَا تَصُدُّهُ أَقْوَالُ الْمُتَهَوِّكِينَ. ﴿وَاعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾: أَي؛ لَا تَبَالِ بِهِمْ، وَاتْرِكْ مَشَاتِمَتَهُمْ وَمَسَابِئَتَهُمْ مَقْبَلًا عَلَى شَانِكَ.

﴿٩٥﴾ ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾: بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ. وَهَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ أَنْ لَا يَضُرُّهُ الْمُسْتَهْزِئُونَ، وَأَنْ يَكْفِيَهُ اللَّهُ إِيَّاهُمْ بِمَا شَاءَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُقُوبَةِ، وَقَدْ فَعَلَ تَعَالَى: فَإِنَّهُ مَا تَظَاهَرَ أَحَدٌ بِالْإِسْتِهْزَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِمَا جَاءَ بِهِ؛ إِلَّا أَهْلَكَهُ اللَّهُ وَقَتَّلَهُ شَرًّا قَتْلَةً.

(١) فِي (ب): «عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ».

﴿٩٦﴾ ثم ذكر وصفهم، وأنهم كما يؤذونك يا رسول الله؛ فإنهم أيضاً يؤذون الله، ﴿الذين يجعلون^(١) مع الله إلهاً آخر﴾: وهو ربهم وخالقهم ومدبرهم. ﴿فسوف يعلمون﴾: غبّ أفعالهم إذا وردوا القيامة.

﴿٩٧﴾ ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾: لك من التكذيب والاستهزاء؛ فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب والتعجيل لهم بما يستحقونه، ولكن الله يمهّلهم، ولا يمهّلهم.

﴿٩٨﴾ فأنت يا محمد، ﴿سبّح^(٢) بحمد ربك وكن من الساجدين﴾؛ أي: أكثر من ذكر الله وتسبيحه وتحميده والصلاة؛ فإن ذلك يوسع الصدر ويشرّحه ويُعينك على أمورك.

﴿٩٩﴾ ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾؛ أي: الموت؛ أي: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات. فامتثل ﷺ أمر ربه، فلم يزل دائماً في العبادة حتى أتاه اليقين من ربه، ﷺ تسليماً كثيراً.

تم تفسير سورة الحجر. والحمد لله رب العالمين آمين.



تفسير سورة النحل

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنَّهُ أَمْرٌ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُزِيلُ الْمَلٰٓئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى مقرباً لما وعد به محققاً لوقوعه: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾: فإنه آت، وما هو آت فإنه قريب. ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾: من نسبة الشريك والولد والصاحبة والكفو وغير ذلك مما نسبه إليه المشركون مما لا يليق بجلاله أو ينافي كماله.

(١) في (ب): «يؤذون الله ويجعلون». (٢) في (ب): «فسبّح».